منظمة الطليعة العربية في تونس

هيئة التأصيل والتطوير النظري

الفكر العربي الوحدوي

طبيعة الأزمة وسبل الخلاص

وحدة حرية إشتراكية



تونس 1989

الفكر العربي الوحدوي :
طبيعة الأزمة وسُبل الخلاص

يوحي العنـوان بوجـود ازمة في الفكـر العربي الوحدوي ، ويشير الى خصوصية الفكر الوحدوي لان انماطا اخرى من الافكار تجد لها مرتعا خصبا في الساحة العربية، بعضها رافد للفكر الوحدوي وبعضها يساهم في اشتداد ازمة الفكر العربي الوحدوي ، كالفكـر الاقليمي والفكـر السـلفي الضيق والفكـر الرجعي ، نعت الفكر (بالعربي) لا يشير الى طريقة التفكير او المنهـج الذي يعتمده العـرب في معالجة مشاكلهم ، انما لوصف حالة الفكر السائدة في الوطن العربي حاليا في اطار الزمان والمكان ، والبحث في ازمة الفكر العربي الوحدوي يقودنا بالضرورة الى توضيح مفهوم الازمة بشكل عام وازمة الفكر بشكل خاص .

ماذا تعني الازمة ؟

الازمة في معناها اللغوي(الضائقة أو الشدة) الا اننا عند استخدامها في مجالات مختلفة نريد بها معاني أخرى وان كانت تتضمن معنى الشدة أو الضائقــة .

في الطب تتردد عبارة « الازمة القلبية » عندما يتعرض القلب لحالة خطـيرة كبوادر الجلطة او قصور في عمـل الصمامات ، فالازمة هنا مشكلة ، قصور في عمل القلب ، خطورة على القلب وحياة الانسان .

(والازمة الاقتصادية) تعني الضائقة الاقتصادية ، وهي ناتجة عن جملة أسباب وتحتاج الى حل جذري ، وهي أوسع وأعمق من مفهوم الصعوبات الاقتصادية ، فكل عمل انتاجي يصادف صعوبات ، ولكن اذا تعرض لازمة أصبح مهـدداً بالخطر والافلاس والفشـل والازمة الاقتصادية على مستوى الدولة ، هي المشكلة التي تتعرض لها الدولة في غياب التخطيط ، حيث يتفشى الاضطراب في الانتاج (فوضى الانتاج) وسوء التنفيذ وسوء التوزيع وتسود البيروقراطية .

(والازمة في الحكم) تعني وجود خلاف حاد في السلطة المركزية ، ينعكس على نظام الحكم وعلى الشعب ، وقد يكون الخلاف بين السلطة المركزية وعموم الجماهير لأن السلطة لاتحقق رغبات وطموحات الجماهير .

(والازمة السياسية) تعني مشكلة ذات طابع سياسي وهي ترتبط بالفكر ، وعندما يتعثر الحل السياسي لاي قضية نقول هناك ازمـة سياسية ، وبصورة عامة كل أزمة على مستوى الدولة هي أزمة مركبة ، فالازمة الاقتصادية لها منعكسـاتها على الوضع السياسي والسلطة المركزية وكل مجالات الحياة الاجتماعية ، فالازمة مشكلة ، لها اسبابها البعيدة والقريبة ، اسبابها الموضوعية والذاتية ، وتشخيص الازمة يبدأ بتحديد الاسباب ، ثم توضع الحلـول المناسبة ، على ضوء الهدف المرسوم ، الهدف الاستراتيجي .

ماذا تعني ازمة الفكر ؟

استطردنا في مفاهيم الازمة في بعض المجالات لنبين ان مفهوم الازمة لا يتحدد بتعريف واحد ، ولا أريد الدخول في جدل حول ماهية الفكر ، وارتباطه بالوعي وهو الخاصية التي تميز الانسان عن الحيوان ، فالفكر في أبسط معانيه هو مجموعةالانشطة الذهنية التي تصدر من مخ الانسان لتفسير حركة الطبيعة والمجتمع ، أو بعبارة اكثر دقة هو نشاط العقل البشري في مواجهة الطبيعة والمجتمع ، يبحث في أسباب الظواهر ويحدد الاهداف للوصول اليها ، تلبية لحاجات مادية أو نفسية ، ونصف الفكر بالصفة التي تحدد المجال الذي ينشط فيه العقل ، او ما يهدف لتحقيقه ، فنقول : **الفكر التقدمي ، والفكر الرجعي والفكر العلمي والفكر الغيبي والفكر السياسي والفكر الاستراتيجي والفكر البرجوازي والفكر الاشتراكي والفكر القومي** ، وعندما يهدف الفكر تحقيق الوحدة القومية نجيز لانفسنا اطلاق عبارة **الفكر الوحدوي** عليه . والازمة في الفكر هي ازمة في المنهج ، منهج التفكير ، فالمقدمات الخاطئة تعطي نتائج خاطئة ، اذا كان منهج التفكير سليما ، كان الفكر سليما ، وليس ثمة ازمة في الفكر ، اذاً ازمة الفكر هي ازمة المنهج الذي يعتمده المفكرون ، والفكر الجماعي ليس جمعا حسابيا لافكار مجموعة من المفكرين ، لانه ناتج تفاعل علاقات اجتماعية عبر اجيال عديدة ، فالمفكر الوحدوي لا يواجه اشخاصا في الواقع كافراد بل يواجه ارثا اجتماعيا هائلا يشكل حاجزا أو سدا يقف في وجه ممارساته الوحدوية ويزرع التشاؤم واليأس في نفسه ، ولكن هذا الارث فيه ما يدفع المفكر للمزيد من النضال والا لفقد مبررات موقفه .

فهل يعاني الفكر العربي من ازمة ؟

« افكر اذاً انا موجود » مقولة شهيرة للفيلسوف الفرنسي «ديكارت» وهو يؤكد على وجوده بالفكر و(التفكير) والمقصود هنا الوجود الانساني أو الاجتماعي ، فالاحياء الاخرى موجودة في الطبيعة ، والكنها تفتقر الى

الوجود الواعي المدرك ، واذا عممنا هذه المقولة على الامة ، كانت النتيجة المنطقية ان وجود الامة بمفكريها ، لان فكر الامة هو نتاج المفكرين الذين يبدعون ويستشفون من خلال الواقع المعقد ملامح المستقبل الآتي فيرسمون السبل السهلة والطرق الآمنة للوصول الى الاهداف ، ونقول (فكر الامة) لان كل فكر لا يخدم مصلحة الامة فكر دخيل ، وهو مظهر من مظاهر ازمة الفكر العربي وقبل أن نذكر بعض مظاهر ازمة الفكر العربي الوحدوي ، لا بد من تشخيص الازمة اي تحديد الاسباب الموضوعية التي تخلق الازمة في الفكر العربي .

تشخيص أزمة الفكر العربي الوحدوي :

الفكر العربي الوحدوي يعاني من ازمة حادة ، لانه انعكاس لواقع امة تعاني من ازمات قاتلة ، والمثل العربي يقول « العقل السليم في الجسم السليم » وينسحب هذا على الامة (فالفكر السليم في الوضع السليم) .

الامة العربية تعاني من التجزئة والانفصال ، تجزئة سياسية فرضها الاستعمار بالحديد والنار ، ليس لها مقومات اجتماعية او ثقافية او طبيعية ، وتجزئة اقتصادية خلقها الاستعمار بنظام التبعية ، وتوجيه التخطيط لتحقيق مصالحه ، وتجزئة ثقافية بمعناها الواسع ، بتكريس الامراض الاجتماعية كالطائفية والعشائرية والاقليمية ، وتعاني الامة العربية من الاستعمار الاستيطاني والدعم الامبريالي له ، فالكيان الصهيوني في فلسطين وجد من أجل الابقاء على التجزئة ، ولمنع قيام اي حركة تحرر عربية ، ولحماية مصالح الاستعمار وهذا الكيان له أهداف استراتيجية ، يتضمنه الشعار الذي ثبته على باب الكنيست « حدودك يا اسرائيل من الفرات الى النيل » ـ هكذا دون تحديد ، وهذا يعني أن كامل المنطقة العربية هي هدف الصهيونية ، وهذا الكيان قائم على فكر يستند على أربعة عناصر :

اولا : النزعة العرقية . ثانيا : النزعة العدوانية . ثالثا : النزعة التوسعية . رابعا : الارتباط المصيري بالامبريالية والاستعمار .

لهذا تعتبر قضية فلسطين قضية العرب المركزية ، لان هـذا الكيان يهدد جميع الاقطار العربية بدون استثناء ، وله أولويات ، ولكن الهدف النهائي هو السيطرة على كامل الارض العربية وانهاء الوجود العربي (الوجود الاجتماعي) .

هذا الواقع احد اسباب ازمة الفكر العربي الوحدوي ، فالوجود الاجتماعي يحدد الوعي الاجتماعي اجمالا .

وتعاني الامة العربية من التخلف بكل صوره واشكاله ، يكفي ان نستدل على ذلك من ارتفاع نسبة الامية في الوطن العربي .

والفكر لا يأخذ أبعاده الموضوعية الا بالتحصيل العلمي واخذ المعارف التي تراكمت بالخبرة والملاحظة والتجربة ، وتتناقلها الاجيال ، هذا الواقع ارضية خصبة لافكار خيالية غيبية ضيقة ، وهو أحد أسباب ازمة الفكر العربي الوحدوي .

والفكر ينتشر بقنوات مختلفة بدءا من المشافهة وانتهاء بأحدث وسائل الاتصال ، وضعف الاتصال العربي (الاعلام العربي الوحدوي) هو احد أسباب ازمة الفكر العربي الوحـدوي ، والاسباب متشابكة ومتشعبة ، وبامكاننا الآن استعراض بعض مظاهر ازمة الفكر العربي الوحدوي .

بعض مظاهر ازمة الفكر العربي الوحدوي :

ان الازمة خلل طاريء على وضعية سليمة ، ومن هنا ستكون مقارنة مظاهر الازمة بالوضعية السليمة للفكر العربي الوحدوي ، الذي ينسجم مع الوجود القومي الموحد .

اولا : الامة العربية امة عريقة ، لها وجود اجتماعي يمتد الى اكثر من (٥٠٠٠) سنة وساهمت في بناء الحضارة الانسانية برسالتها الخالدة، وهي كوجود اجتماعي كانت الوعاء الذي انصهرت فيه كافة التشكيلات الاجتماعية التي سكنت في الوطن العربي . والحضارة العربية هي روح الحضارات التي ظهرت على الارض العربية في وادي النيل وبلاد الرافدين وبلاد الشام واليمن والمغرب العربي ، فالفكر الذي ينطلق من هذه الحقائق فكر عربي وحدوي سليم ، **والفكر الاقليمي** او الفكر الداعي للتشكيك بوحدة الامة العربية والتشكيك بتراثها الحضاري ، هو مظهر من مظاهر ازمة الفكر العربي الوحدوي ، والفكر الاقليمي في المنطق القومي مدان ، ولكن اذا كان في خدمة الوحدة الوطنية (القطرية) ، ولا يتناقض مع الوجود القومي للامة العربية فانه رافد للفكر العربي الوحدوي ،فعندما يعتز المصري بحضارة وادي النيل ودورها في التراث العربي فهو ينطلق من الجزء الى الكل وهو منطلق سليم من حيث المبدا ويجب أن يتعزز بالموقف القومي على الصعيد العربي .

ثانيا : سنة الحياة (التطور) فالمجتمع البشري يتطور باتجاه يحقق الرفاهية والحرية اكثر للانسان ، ويخضع المجتمع في تطوره لصراعات مختلفة هي من طبيعة التناقض القائم فيه ، صراع طبقي وصراعات أخرى تنبثق منه ، وبشكل عام يظهر على الصعيد الفكري اتجاهان رئيسان ، اتجاه له مصلحة في التغيير لان الاطر القائمة لا تستوعب آفاق التطور وهو اتجاه تقدمي ، واتجاه محافظ او رجعي يريد الابقاء على الواقع بكل تناقضاته ، او يريد ايقاف عجلة التطور ، وعكس دورانها .

والفكر الذي يخدم هذا الاتجاه هو فكر لا ينسجم مع الوجود القومي، كالفكر الرجعي والفكر السلفي الضيق ، وهو مظهر من مظاهر ازمة الفكر العربي الوحدوي والحديث لا يشمل الفكر الذي يحارب الوجود القومي بشكل مقصود ، من منطلق انتماء مشبوه ، فبعض المفكرين يرى الطريق الى الوحدة العربية ، بالعودة الى الماضي وحسب ، نية حسنة ولكن أزمة في الفكر ، ولا يخلو المجتمع من فئات تغذي هذه الاتجاهات لتعزيز التخلف والتجزئة .

ثالثا : في الفلسفة يقال : لكل عصر سؤال رئيس ، يبحث عن اجابة، فيتصدى الفلاسفة والمفكرون بمختلف اتجاهاتهم للاجابة عليه ، فما هو السؤال الرئيس في هذا العصر والمطروح على امتنا العربية ؟

واقعنا العربي المعاصر يطرح سؤاله الرئيس : « كيف نتجاوز التجزئة ونقيم وحدتنا القومية ؟ » .

وهذا السؤال له مبررات موضوعية ، فاتجاه العصر لصالح التكتلات والتجمعات الاقتصادية والسياسية ، والامة الضعيفة لا وجود لها في عالم يعتمد منطق القوة في التعامل والحسابات ، ولكل امة رسالة ولا يمكن أن تؤدي امتنا العربية رسالتها بغياب الوحدة القومية .

فهل تصدى المفكرون العرب للاجابة على هذا السؤال ؟

لا اريد أن اذكر امثلة من مواقف بعض المفكرين القوميين الذين ساهموا بجهد مشكور لرسم معالم الطريق الى الوحدة العربية ، وبعض التنظيمات السياسية القومية التي تبنت الوحدة العربية كهدف استراتيجي لها . ولكن اختلاف وجهات النظر مظهر من مظاهر ازمة الفكر العربي الوحدوي ، وغياب الفلسفة القومية (الفلسفة التي تخدم المسالة القومية) هو احد اسباب مظهر تعدد الاتجاهات الفكرية الوحدوية .

رابعا : مستقبل الامة العربية في وحدتها ، والتناقض الاساسي في الوطن العربي هو بين الوجود العربي والوجود الصهيوني الامبريالي ، وكل فكر لا ينطلق من هذه الحقيقة يعاني من ازمة ، وكثير من المفكرين لم يعطوا لهذا التناقض اهمية اساسية ، واذكر هنا مثالا واحدا ، الكاتب (العربي) المصري الكبير نجيب محفوظ ، واضع صفة العربي بين قوسين للتاكيد انني لا اشك في انتمائه الى الامة العربية ، هذا المفكر والروائي الكبير صرح مبررا عقد الاتفاقية بين نظام مصر والكيان الصهيوني بما معناه ، لقد خضنا على مدى ثلاثين سنة صراعات خاسرة مع (اسرائيل)،

فلنجرب الصلح معها ، ربما نصل الى ما نريد !!؟ هذا التصريح ينسف دفعة واحدة كل مقومات الفكر الاستراتيجي العربي واذا لم نتهم الكاتب الكبير والمفكر بالخيانة ، فاننا نسجل ادانة صارخة على الكاتب لانه يجهل ابسط ابجديات السياسة ولا اظنه كذلك .

ويحز في نفسي الالم عندما اسمع كبار الكتاب في مصر ممن كنا نعتز بانتاجهم وتزخر كتبهم في كل المكتبات العامة والخاصة ، قد شنوا حملة توعية لاقرار تطبيع العلاقات .فكان الوعي كان غائبا وبدا يعود « عودة الوعي » . ان هذه المظاهر في ازمة الفكر العربي تتجسد عمليا في مواقف سياسية لبعض المسؤولين العرب في القيمة او دونها ، وقد تكون منطلقا فكريا لتنظيم سياسي يخدم اعداء الامة العربية بشكل مباشر وغير مباشر. ويشكل خطورة مباشرة على الوجود العربي عندما يتحول الى تنظيم مسلح لا يحتكم الى العقل الى الرصاصة وشريعة الغاب ، وقد عانت اقطار عربية من هذا الموقف مثل (سورية) بسبب مواقفها القومية الوطنية التقدمية ، حيث سقط عشرات الابرياء برصاص الغدر والخيانة على ايدي عصابات مجرمة آثمة تسترت بالدين وكان هدفها ان تسير سورية على نهج كامب ديفيد .

ازمة فكر ام ازمة تفكير ؟

الازمة في الفكر ام في التفكير ؟ عندما نعود الى الماضي السحيق للوجود البشري ونبحث في منشأ الفكر ، نجد ان الحاجة بمفهومها المادي كانت الدافع للتفكير واذا اردنا الدقة ، كان الفكر يأخذ مجراه عندما تعترض الانسان مشكلة تحول دون وصوله لاهدافه ، فالفكر يتولد من المشاكل ، ولا فكر حيث لا مشكلة ، ولولا وجود مشاكل في فهم الطبيعة والوجود لما وجدت الفلسفة ، فالفكر هونتاج التفكير الواعي المدرك في مخ الانسان ، فاذا كان التفكير لا يعاني من ازمة فان الفكر يظهر سليما ولا يعاني هو الاخر ازمة ، والعلاقة بين الفكر والتفكير علاقة معنوية والفارق بينهما ان التفكير

هو الطريقة التي يعالج بها المخ معطيات الواقع لتفسير الظاهرة او حل المشكلة ، بينما الفكر هو النتيجة التي يصيغها المفكر في فرضيات ونظريات وعبارات تصبح ملكا للمجتمع ، فالتفكير اذا ذاتي والفكر اجتماعي . واذا ازمة الفكر هي ازمة في بنية المجتمع ، والمفكر هو فرد من هذا المجتمع ، يتاثر به ويؤثر فيه ، وهو يعاني من ازمة في التفكير اذا لم يتبع المنهج العلمي في التفكير ، وسنرى من خلال عرض سمات التفكير العلمي ان غياب المنهج العلمي في التفكير هو العامل الاساسي في ازمة التفكير وازمة الفكر العربي الوحدوي .

سمات التفكير العلمي :

يتسم التفكير العلمي بسمات عديدة ، والفكر عندما يكون وليد التفكير العلمي ، سيكون فكرا سليما معافى ، لا يعاني من الازمات ، فما هي تلك السمات ؟

اولا : سمة التراكمية :

ان الفكر السائد ليس وليد اللحظة ، والتفكير العلمي يستند في معطياته على التراكم المعرفي ، فاذا لم ياخذ المفكر بهذه السمة وقع في مطب الغيبية واللاعلمية ، والتراكم المعرفي يحصل باتجاهين ، اتجاه راسي وهو تطور المعارف المتعلقة بالظاهرة الواحدة ، واتجاه افقي ، هو تراكم المعارف المتعلقة بالظاهرة في مجالات اخرى ، واذا حددنا ذلك بمثل من علم الفيزياء ، الفيزياء ، ناخذ بنية الذرة ، فقد تطورت معارفنا عن بنيتها بشكل راسي من البنية الكروية التي لا تنقسم الى نموذج تومسون ، ثم نموذج رذرفورد ، وبور وسمرفيلد ، ثم البنية المعقدة التي توصلنا اليها حاليا . ولكن لم نتمكن من معرفة بنية الذرة الا بعد حصول التطور في علوم اخرى كعلم الكيمياء والاشعة وحتى الرياضيات وهذا هو التراكم باتجاه افقي .

فكيف نستفيد من هذه السمة لخلق فكر عربي وحدوي ؟

الفكر الوحدوي العربي ، يهدف تحقيق الوحدة العربية الشاملة ، وهي في تعريفها الثوري تصفية كل اشكال التجزئة والانفصال القائمة بين الاقطار العربية واقامة المجتمع العربي الديمقراطي الموحد في ظل دولة عربية واحدة ، ولكي يكون الفكر العربي الوحدوي علميا لا يعاني من الازمات ، يعتمدعلى سمة التراكمية ، باتجاهيها الراسي والافقي فالمحاولات الوحدوية في التاريخ العربي ، والاساس الفكري لهذه المحاولات ، وتجربة الامة العربية في بناء دولتها في القرن السابع الميلادي ، ودراسة الاسباب التي ادت الى تمزقها ، كلها معارف وتراكمات راسية ، يستعين بها المفكر الوحدوي لوضع نظرية فكرية وحدوية ، كما ان التراكمات بالاتجاه الافقي ذخيرة للفكر الوحدوي ، فتطور المعارف الفلسفية والعلمية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية من خلال تراكماتها الراسية ، يستقي منها ما يعزز نظريته ، فالوحدة العربية هي وحدة شاملة ، تتحقق بوحدة نظامها السياسي والاقتصادي والاجتماعي ويعكس ذلك وحدة الفن والفلسفة والادب ، اذ لايكفي ان نفكر بالوحدة السياسية ولا نعطي للوحدة الفكرية في المجال الفلسفي الاهمية التي تستحقها ، ولعل احدى الاسباب التي ادت الى تمزق المجتمع العربي هي غياب الفلسفة العربية الموحدة ، ولا يخفى ما تقوم به الدول العظمى لنشر فلسفتها التي تشكل المنطلق لايديولوجيتها وسياستها الخارجية على وجه العموم . واحدى أسباب ازمة الفكر العربي الوحدوي ، هي غياب الفلسفة العربية الموحدة فالتيارات الفكرية الموجودة على الساحة العربية تنطلق من اسس فلسفية مختلفة ، من هنا تاتي اهمية الاخذ بمبدا التراكمية في المعارف باتجاهها الراسي لنفس الموضوع وباتجاهها الافقي للمواضيع المختلفة والمتكاملة ، وهذا لا يتعارض مع حرية الفكر وخصوصا اذا كان هذا الفكر في خدمة مشكلة تاريخية لها جذورها وفروعها ، وقد اعتمد الدكتور نديم البيطار على هذه السمة في تشخيص القوانين المؤدية الى الوحدة .

ثانيا : سمة التنظيم : في حياتنا العملية ، وعندما نريد حل مسالة حسابية او مشكلة مهنية نقوم بتنظيم افكارنا ونجسدها عمليا في خطوات

انفذها مرحلة بعد مرحلة ، وامام مشكلة كبيرة كمشكلة التجزئة ، لابد أن يكون تفكيرنا الوحدوي قائما على هذه السمة ، اذ كيف سنحقق الوحدة العربيـــة ؟

يكفي ان نذكر نماذج من التفكير غير العلمي للاستدلال علـــى ازمـــة التفكير الوحدوي . هناك من يفكر بتحقيق الوحدة عن طريق العودة الى الماضي ، الى الاصول السلفية ، متجاهلا سمة التراكميـــة ، ويفوته أن المجتمع العربي الموحد بدأ بالانحلال في ظل الفهم الخاطيء للاصول السلفية ففي الوقت الذي كان فيه المجتمع العربي يتعرض لهجمات الغزاة كانت تبرز دعوات تصوفية تصرف اهتمام الانسان عن الامور الدنوية الضرورية والمثل الذي نورده هنا يؤكد ذلك ، ابان الغزو الصليبي لبلاد الشام كان (الغزالي) مشغولا بتاليف كتاب (احياء علوم الدين) ، ونذكر الغزالي دون غيره لان ما قدمه للفكر السلفي لم يقدمـــه اي فيلسوف او مفكـــر اسلامي آخر ، وفي الظروف التي عاش فيها الغزالي بوجـــود الهيمنـــة الصليبية ، كان الاجدر ان يكون له موقف رافض للاحتلال ، والتركيز على الجهاد في سبيل الله والوطن ، نحن نتحدث عن موقف وليس عن فكر سلفي تراثي ، فيه من مقومات الامة ما يؤخذ به في الحاضر وهو مصدر اعتزاز لكل العرب .

وهناك من يفكر ان الوحدة العربية نتيجة حتمية بعد زوال الاستعمار وتحقيق النظام الاشتراكي ، ورغم صحة هذا المنطلق من الناحية النظرية فان الواقع العملي يثبت خطاه ، فالاستعمار اوجد التجزئة وحريص عليها ويكرسها ببث التشكيك في مشروعية الوحدة القومية ، ويثير النزعـــات الاقليمية والطائفية ، فكيف يتخلى الاستعمار عن اهدافه ؟ هل ننتظرحتى يتكرم الاستعمار بمنحنا حريتنا الحقيقية ؟ واذا تكرم وانعم علينا بالحرية كم سننتظر حتى تتحقق الاشتراكية ومن ثم نسعى لاقامة الوحدة القومية؟

الموقف العملي لهذا الاتجاه من المفكرين ، هو التقليل من الدور القومي لحركة التحرر العربية ونبذ فكرةالقومية ، والتركيز على مفهوم الوطنية

الذي يقلل من اهمية الامة كوجود اجتماعي بشري ، (وخاصة الامةالعربية التي تتصف بمقومات ذات بعد اجتماعي ثقافي مميز اكثر مما هو جغرافي ، وهذا الاتجاه حتى باستعمال المفردات يحرص على ذكر لفظة (الشعوب العربية) وليس الشعب العربي الواحد مؤكداً بذلك على تعددية الانتماء .

وهناك من يفكر ان الوحدة العربية ، يمكن ان تتحقق على مراحل ، كأن تتوحد اقطار متجاورة تجمعها سمات متقاربة مثل ، وحدة بلاد الشام ، ووحدة شبه الجزيرة العربية ووحدة وادي النيل ، ووحدة المغرب العربي ، وبعدها يمكن ان يقوم اتحاد بين هذه الوحدات الاربعة (الركائز الاربعة) لينتهي بوحدة شاملة .

ومنطلق هذا المفكر ، منطلق جغرافي ، وهو صحيح من حيث المبدأ ولكن يتجاهل ان الاستعمار عندما بدأ بالتجزئة انطلق من نفس المنطلق ليزرع الشك في حقيقة الامة العربية الواحدة .

ويمكن للمتتبع والمهتم بالفكر العربي الوحدوي أن يطلع على نماذج من التفكير الوحدوي ونظريات كثيرة حاولت رسم معالم الطريق الى الوحدة العربية ، وجميعها جليلة الهدف ولكن ينقصها المنهج الموحد ، ولست منظرا وحدويا ولكن كمواطن عربي اعاني من واقع التجزئة ، لا بأس أن أعرض وجهة نظري في ملامح الطريق الى الوحدة العربية ، وهي ليست وجهة نظر فردية ، فمن خلال متابعتي للفكرالوحدوي لمست وجهات نظر مماثلة لدى قسم كبير من المفكرين الوحدويين . ويشاركني المواطن العادي على ما اعتقد في هذا الراي ببراءة .

اولا : في هذا الواقع العربي المجزأ ، وتعدد الانظمة السياسية فيه ، والتنظيمات السياسية (الاحزاب) ، تزداد الازمة الفكرية الوحدوية ، ومن سمة التراكمية في الفكر الوحدوي نجد أن التوجيه المركزي المدعوم بالقوة كان العامل الحاسم في تحقيق الوحدة ، وعندما ضعف التوجيه المركزي ، بدأ التشتت ، فكيف نوجد السلطة المركزية التي تمتلك قوة القرار المركزي لتحقيق الوحدة العربية ؟

ان التنظيم القومي الشامل على مستوى الوطن العربي عامل أساسي في توحيد المنطلق الفكري الوحدوي . وعلى الصعيد العملي هناك تنظيمات سياسية في كل قطر عربي وبعضها يقود السلطة في هذا القطر أو ذاك ، ولا نستبعد قيام مثل هذا التنظيم سيما وأن هناك تنظيمات شعبية مهنية على مستوى الوطن العربي ، فلماذا لا يكون هذا التنظيم على الصعيد السياسي ؟

ثانيا : ان التنظيم السياسي القومي الشامل ، لا يمكن تحقيقه بنفي التنظيمات السياسية القائمة ، ففي كل قطر تنظيمات سياسية تتبنى الوحدة العربية بشكل او بآخر ، ويمكن بالحوار الديمقراطي اقامة جبهات استراتيجية من اجل توحيد التوجيه المركزي ، والتفكير العلمي يقودنا الى هذه النتيجة ، فما دام هدف التنظيمات القومية هو الوحدة العربية الشاملة فما الذي يمنع اقامة تحالف وجبهات بين هذه التنظيمات ؟

ثالثا : الوحدة دولة ذات نظام اجتماعي اقتصادي باطار سياسي تقدمي ، ولا بد أن يكون هذا النظام مناقضا لمصالح الاستعمار ، ويحقق التقدم الاجتماعي للجماهير ، فالوحدة القومية مرتبطة بالمسألة الاجتماعية بالضرورة ، وما لم نفكر بهذه الحقيقة نبتعد عن الموضوعية اذ من المستحيل اقامة وحدة بين قطرين لهما أنظمة سياسية واجتماعية متناقضة ، نستطيع ذلك على الورق اما عمليا فان مصيرها الفشل .

رابعا : يقودنا التفكير العلمي المنظم الى حقيقة اخرى بخصوص مسألة الوحدة وهي أن الوحدة العربية الناجزة لا تتحقق دفعة واحدة ، بل يمكن تحقيقها على مراحل وذلك بسبب تفاوت درجات التطور الاجتماعي والاقتصادي في الوطن العربي ، وطبيعة الانظمة القائمة ، وليس بالضرورة أن تكون بمفهوم الركائز الاربعة ، فوحدة ١٩٥٨ بين سورية ومصر اثبتت امكانية اقامة وحدة بين اي قطرين عربيين غير متجاورين ، وفشلها لا يعود لاسباب جغرافية والا لما قامت بالاساس .

نخلص مما تقدم أن سمة التنظيم في التفكير العلمي ، تضعنا في مواجهة الواقع العربي فنبدأ بالملاحظة الواعية وهي أول خطوة في المنهج العلمي ، ثم تلي ذلك مرحلة التجربة أو التجارب المتكررة ، وتاريخنا المعاصر غني بمحاولات وحدوية كثيرة يمكن الاستفادة من فشلها لصياغة فرضية تفسر معالم الطريق الى الوحدة العربية ، واستقراء سريع للواقع العربي يكشف لنا ملامح الطريق الى الوحدة العربية الشاملة وهي :

١ ــ ضرورة وجود تنظيم قومي شامل على مستوى الوطن العربي .
٢ ــ ضرورة لقاء القوى التقدمية الوحدوية واقامة جبهات وتحالفات .
٣ ــ ضرورة تبني نظام اجتماعي تقدمي يكون الدور فيه للقطاع العام .
٤ ــ تحقيق الوحـدة على مراحـل .

ثالثا ــ سمة السببية :

من سمات التفكير العلمي ، البحث عن أسباب الظاهرة ، وتشخيصها لوضع الحلول المناسبة ، فهل شخص الفكر العربي الوحدوي أسباب التجزئة ؟

يمكن القـول بدون تحفظ أن الفكـر الوحدوي العربي متفق في تشخيص الاسباب الرئيسية للتجزئة في الوطن العربي في العصر الحديث والمعاصر ، فالاستعمار الغـربي مارس سياسة فرق تسد ، وحقق اهدافه . ولكن بالتفكير العلمي والاعتماد على سمة التراكمية والتنظيم تكشف أسبابا ذاتية مهدت للتجزئة ، فالاستعمار لم يستطع التسلل الى الوطن العربي الا في فترات الضعف ، وعلينـا أن نبحث في أسباب الضعف العربي إن العودة الى قراءة التاريخ بمنظار قومي تقدمي تكشف لنا الاسباب التي مزقت المجتمع العربي من الداخل ، ما الذي أدى الى تدني الفكـر الفلسفي والعلمي العربي ؟ ما الذي أدى الى التمزق السياسي ؟ ما الذي شجع على انتشار الفكر الغيبي الذي أفرز عقلية التواكل والانزواء ؟ .

إن التفكير العلمي يشخص الاسباب بدقة ، لانه يعتمد على التراكميا وهو بذلك يبحث في الظاهرة واسبابها باتجاه راسي في العمق التاريخي واتجاه افقي بارتباط الظاهرة واسبابها بظواهر واسباب اخرى ، ويعتمد التنظيم المنهجي في البحث والاستقراء . فملاحظة (الظاهرة الوحدوية) ودراسة التجارب الوحدوية ، وتجارب الامم المماثلة ستكشف ان هناك سمات اخرى للتفكير العلمي ، وما يهمنا في هذا البحث هو تبيان ازمة الفكر العربي التي هي نتيجة منطقية لازمة التفكير العربي . هل ما ذكرناه هو الحقيقة وما دون ذلك باطل ؟

تلك هي وجهة نظر ، ولكنها مبنية على معطيات تساهم في اقل تقدير في بلورة وجهات نظر اخرى حول مفهوم الوحدة العربية والطريق المؤدي اليها ، ومن تفاعل الاراء بكل صراحة وموضوعية يستقيم الفكر القومي العربي ويتجاوز ازمته **فكيف السبيل لفكر عربي وحدوي ؟**

اولا : المنهج العلمي في التفكير ، يوحد نظرة المفكرين العرب ، لان هذا المنهج القائم على الملاحظة والتجربة ويعتمد على مبادىء التراكمية والتنظيم والسببية كفيل بخلق فكر وحدوي عربي على مستوى الوطن العربي ، فاذا كنا متفقين على أن الصهيونية بوجودها في فلسطين هي العدو الاساسي لامتنا العربية ، فان من يقف معها يشاركها في العداء ، وكيف أكون عربيا وحدويا وافكر في امكانية التفاهم مع هذا الكيان والعيش بسلام ؟

ثانيا : لا يستقيم التفكير العربي الوحدوي بوجود الاسطورة والخرافة ، وبدون الدخول في توضيح معنى الاسطورة والخرافة ، أشير الى صفة من صفاتهما وهي عدم الواقعية في التفسير ، وعدم ربط الاسباب بالنتائج ربطا منطقيا ، ولا بد للفكر العربي أن يتجاوز الاسطورة والخرافة وان كانت بعض الاساطير تنمي الخيال وتضفي على الفكر رومانسية حالمة .

ثالثا : الاعتماد على العقل ورفض التعصب الاعمى ، فالفكر العربي الوحدوي ، انفعل مع الاحداث ، ولم يحتكم الى العقل في الربع الاول من القرن العشرين ، فكانت فكرة الوحدة العربية ، فكرة خيالية ، والقومية العربية هي شعار براق دون أن يكون لها محتوى ثوري تقدمي .

وبعد الحرب العالمية الثانية ، بدأت تكتسب القومية العربية كحركة مضمونا تحرريا اجتماعيا وتبلورت مفاهيم اكثر واقعية عن الوحدة العربية والمجتمع العربي الموحد .

رابعا : كيف يصل الفكر الى المواطن العربي ؟ سؤال يحدد دور أجهزة الاعلام ، فمن خلال الكلمة المقروءة والمسموعة والصورة يمكن أن يصل الفكر الى المواطن وهنا تتحدد مسؤولية القائمين على توجيه وسائل الاعلام ، ومسؤولية السلطة السياسية ، ولا مبرر لأي سلطة عربية أن تحرم الجماهير العربية من الفكر العربي الوحدوي ، اللهم الا اذا كانت الوطنية شعارا يخفي نوايا أخرى تودي بأصحابها الى الدرك الاسفل من النار !!.

خامسا : الانطلاق من الواقع الموضوعي ، كفيل بتوحيد الفكر العربي فالواقع العربي في أقطاره متماثل ، والبحث في مشاكله بداية التفكير السليم وما الفكر الوحدوي الا جماع التيارات الفكرية التي ترسم ملامح الوحدة العربية الآتية ... بلا ريب ؟!

* * *

